




الرئيسية > ثقافة

رسائل عدنان المالكي من السجن: لقاء السياسة بالنميمة

علي سفر | الاثنين 2025/06/30



العقيد-الركن-عدنان-المالكي

مشاركة عبر







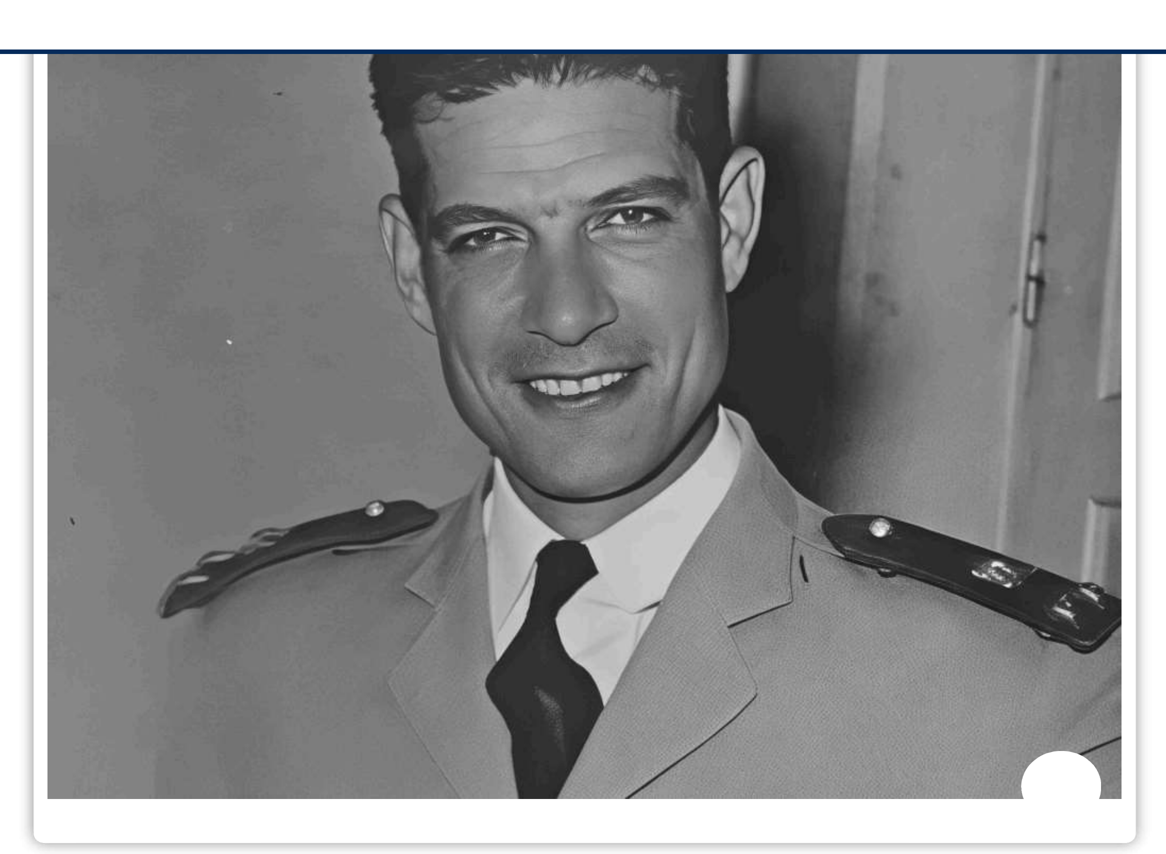
حجم الخط




من خلال إعادة إصدار كتاب لا تعرفه الأجيال الجديدة، يحمل عنوان "رسائل من السجن"(*)، بتوقيع العقيد الشهيد عدنان المالكي (1919-1955)، تدخل دار النشر "محترف أوكسجين"، العهد السوري الجديد، بعد انتهاء المرحلة الأسدية، عبر سلسلة أرشيفية، تبدو من خلال هذه المحاولة واعدة، وتضيء على جوانب مهمة من تاريخ البلد.

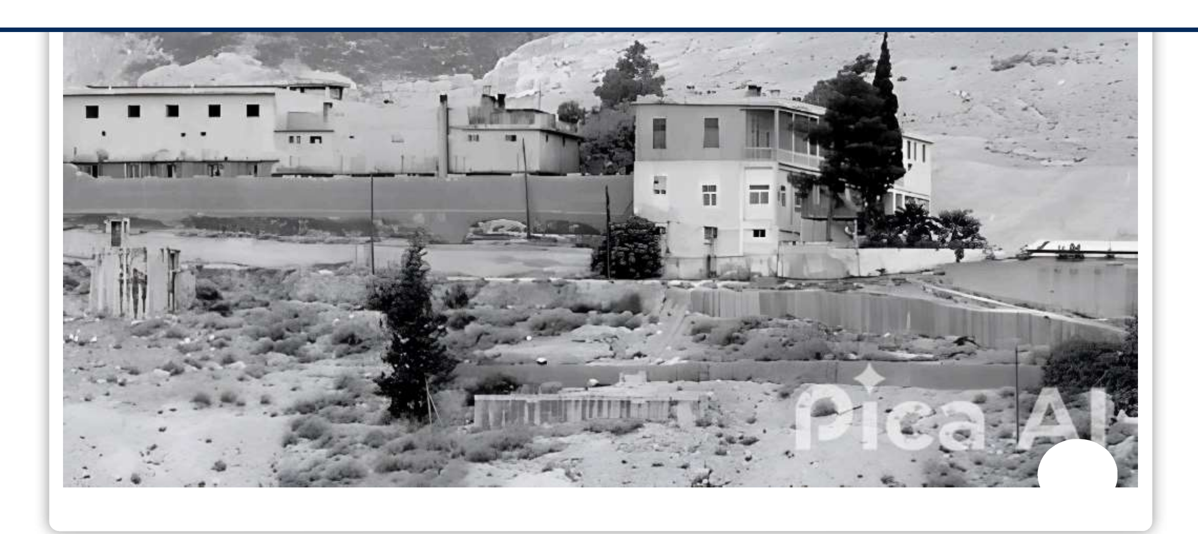
في واقع الأمر، كان الشغل على التفاصيل التاريخية التي سبقت عهد الوحدة مع مصر في عام 1958، وما يماثلها بعد الانفصال في عام 1961، متاحاً إلى حد كبير، ضمن الخطوط التاريخية العامة، وإذا كان هناك ثغرات في المعلومات والتفاصيل، فإن المذكرات الشخصية المتاحة لأشخاص كان لهم دور في القرارات التي حدّدت مسارات المستقبل آنذاك، تغطي جوانب مهمة، الأمر الذي يصنع مشهداً شبه كامل لما جرى، غير أن ثمة منعطفات لا يمكن حتى اللحظة الجزم بما جرى فيها، ليس لإشكاليتها فقط، بل لأن التعمق فيها قد يفضي إلى سحب الملفات المغلقة المختومة بالشمع الأحمر ووضعها على الطاولة، كي يجري النقاش حولها وفيها من جديد.





اغتيال المالكي قضية من القضايا المثيرة في تاريخ سوريا، فهذه الحادثة التي مرّت ذكراها الـ70 قبل فترة وجيزة (22 نيسان 1955) لطالما اعتُبرت مفصلية لجهة سيطرة الجيش على الحياة العامة في سوريا التي كانت قد خرجت قبل عام واحد فقط من عهد ديكتاتورية أديب الشيشكلي، والصراع بين القوتين السياسيتين الناهضتين آنذاك: الحزب السوري القومي الاجتماعي، وحزب البعث العربي الاشتراكي، حول التحكم في الأجهزة! وقد أدّى اتهام الأول بتهمة التخطيط وتنفيذ العملية إلى تدميره بشكل كامل واستبعاده من المشهد السوري لعقود لاحقة.ضمن هذا المسار، وطالما أن الحادثة هي ما يسترعي الاهتمام، فإن موضوعها قد يصبح ملحقاً بها، أي أن سيرة حياة المالكي نفسه قد تتراجع نحو الخلف، رغم أنها قد تحتوي تفاصيل مهمة جداً، لا لكشف ملابسات الجريمة فقط، بل لفهم الدور الذي كان مأمولًا للعقيد المغدور، فيما لو لم تنل منه الرصاصات التي أتته من الخلف في منصة الملعب البلدي في دمشق.





ويمعن الناقد والشاعر زياد عبدالله في الآلية ذاتها عبر تقديمه للكتاب من خلال سيناريو تخييلي لوقائع اليومين اللذين سبقا الاغتيال، لكنه يقود التفاصيل إلى إعادة الاعتبار للحياتي اليومي، للشخصية التي يضيء الكتاب بذاته عنها وبقلمها، حيث يطّلع القارئ هنا على حفنة من الرسائل التي دوّنها المالكي في سجن المزة أثناء اعتقاله إبان حكم أديب الشيشكلي، جراء اتهامه بالتحضير للانقلاب عليه.النصوص المنشورة هنا، ورغم مرور عشرات السنين على كتابتها، تجذب القارئ نحو مستويين: الأول، وهو اللغة البسيطة التي يدوّن عبرها ضابط شاب مشاعره وأحاسيسه، ويستدعي من خلالها المانشيت التاريخي، ليجعله عنواناً للتحدي مع السلطة الغاشمة. فهو هنا يؤكد أن مقوّمات الصمود تتأتى من هذا الاتصال بين الذات الحاضرة في المضارع وبين ذوات الشخصيات التاريخية في الماضي، إذ يأتي في خطاب يفترض به أن يكون تواصلياً مع العائلة؛ الأب، والأم، والإخوة، بأبيات شعرية مجتزأة من قصائد ترفع مستوى المقاومة لسلطة الطاغية وسجّانيه، من أجل إظهار بيانه السياسي الشخصي، الذي يلخصه بالقول: "لا يمكننا التنازل عن مبادئنا ولو أعطونا رتب الدنيا ومال العالم كله"!



أما المستوى الثاني، فهي النميمة التي يسرّبها المالكي في الرسائل، وكأنه يتحدث مع أهله في جلسة منزلية، فنعثر على تفاصيل تتناول أشخاصاً كثر، ولكن عبر تشفير لا يُفكّ إلا من خلال مفردات متاحة في ثرثرات العائلة! وعلى



المباشرة، فالعقيد الشيشكلي هو "ابن عمّتي" كما يسميه الشارع في ذلك الوقت، لكنه يسميه أيضاً "رئيس العصابة" و"رئيس القراصنة"، وحركة التحرير التي أسسها صارت "حركة الإجرام"، ولعله قد قصد السياسي أكرم الحوراني بتعبير "أكرم وجماعته"!

إلا أن المفارقة التي لا بد أن يلاحظها القارئ السوري، وربما يكون مجبراً على التوقف عندها، فهي التباين الهائل بين ظروف السجن في زمن حكم العقيد الشيشكلي، وبين زمن حكم البعث.

فحينما يشتكي العقيد المالكي في رسالته الأولى الموجهة إلى مدير السجن، تضييقَ السجّانين عليه، ومن حرمانه مقابلة أخيه رياض الذي كان مسجوناً معه في المكان ذاته، يشعر القارئ بأنه لم يكن مسجوناً في سوريا بل في بلد آخر، لكنه يوقن في النهاية الانحدار الكبير الذي لحق بالحياة العامة والشرط الإنساني الذي كان يعيش السوريون فيه، بالمقارنة مع حال السجون العسكرية والمدنية التي عرفوها في زمن التوحّش الأسدي.

يقول المالكي في الرسالة المؤرخة 6/4/1953:

"إلى الرقيب الأول عزة حسين، مدير سجن المزة

أطلب إليك أن تُبلِغ رؤساءك ما يلي:

إنني إذ أكتب كلماتي هذه أؤكد أن عزيمتي لن تخور، وبأنها لا تزداد مع الأيام إلا قوة، كما أن معنوياتي لا يطرأ عليها إلا الصلابة، وافتخاري بسجن الشرف لا يعادله افتخار، وأن ما دفعني إلى الكتابة إذا ما هو التبرم من السجن، وما أعذبه إذا كان في سبيل عقيدة شريفة نبيلة ومبادئ سامية أفتخر بأن أكون أحد من يحملون لواءها، إنما رأيت أن أنبهكم إلى أن المعاملة التي نُعامل بها هنا في السجن لن تجدي أي نفع، وبأن هذه الطريقة التي قد تفكرون بأنها محطّمة لمعنوياتنا قد عافتها المجتمعات منذ أواخر القرون الوسطى، وكلٌّ منا قد قرأ باشمئزاز عن الباستيل، وعن عهود العبودية والاستبداد التي طويت منذ أمد



المزة، ولا أشبّهها إلا بالتي كانت تجري في عصور الاستبداد؟

ولا أظن أن المعتقلين السياسيين في أي بلد من بلاد العالم يرون ما نراه، وإلا، فهل يُعقل أن يُحرَم الأخ من مشاهدة أخيه المريض مدة تنوف عن مائة يوم لا يرى أحدهما الثاني ولا يسمع صوته، ويُمنع السجناء العاديون حتى من السلام على المعتقل، وإلا اعتُبر العمل جرماً؟ وهل يُعقل أن يُراقب المعتقل داخل السجن مراقبة سافرة مفضوحة كما يُراقب جواسيس اليهود، لا، بل أشد؟ وما هي الغاية يا ترى من منع المعتقلين الاتصال ببعضهم؟

فإذا كان الهدف من ذلك تحطيم المعنويات، فإنني أؤكد لكم أن من دخل سجن المزة حاملًا بعض السلبية لا يستقر فيه الوقت إلا ويصبح السلبية المجسمة، والمعاملة الطيبة هي التي تزيل الأحقاد وتمهد مجال التفاهم، أما هذا النوع من الأسلوب، فلا ينتج عنه إلا أسوأ العواقب، ولا يزيد القلوب إلا حقداً، والمعنويات قوة، والعقائد سموّاً.

وفي الوقت نفسه، لا يسعني إلا أن أهمس في أذن المسؤولين همساً دافعه الإشفاق على الوطن، ليس غير، لما يمكن أن تمر عليه من كوارث، بأن تخمة السجون بالأحرار لا تعني إلا أمراً واحداً، ألا وهو قرب انقلاب الآية عن طريق الدم والنار".

والحل إن هذه الرسائل تشكل مصدراً أولياً نادراً يسلّط الضوء على فترة حرجة من تاريخ سوريا السياسي. وهي توثّق جوانب إنسانية وسياسية قلّما نجدها في السرديات الرسمية. كما تتيح للباحثين الاطلاع على مواقف وتفاصيل من داخل تجربة الاعتقال قبل هيمنة البعث.

(*) صدرت طبعة أولى يتيمة من هذا الكتاب في العام 1960.



الأكثر قراءة



علماء إيران ليسوا الوحيدين....علاقة راقية إبراهيم باغتيال سميرة موسى



رسائل عدنان المالكي من السجن: لقاء السياسة بالنميمة



محمد خضير... حذاء الجنديّ



"غيبة مي" لنجوى بركات: رثاء لهشاشة الكائن والمكان


المدن
جريدة إلكترونية مستقلة .. وفي رواية أخرى





جريدة "المدن" الإلكترونية جريدة إلكترونية مستقلة مقرها بيروت تمثل التيار المدني اللبناني والعربي

+ روابط سريعة

+ معلومات

النشرة البريدية

خطوة بسيطة وتكون من المطلعين على الخبر في لحظة ظهوره

أدخل بريدك الإلكتروني اشترك


جريدة إلكترونية مستقلة .. وفي رواية أخرى